Coptology

عواصف الأصولية القبطية ...

متى يهل علينا فجر التنوير؟

(٢)

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

عواصف الأصولية القبطية

ومتى يهل علينا فجر التنوير – ٢

التجسد هو اتحاد الألوهة بالإنسانية في يسوع المسيح. يسوع هو الإله المتجسد، ومهما قلنا عن أسباب وغاية التجسد، يظل الموضوع الحاضر دائماً هو: الإنسان.

مهما حشدنا من شرح أو دفاع عن تجسد ابن الله، فالذي غاب من الشرح والدفاع هو الموضوع الأصلي: الإنسان. لقد حقق التجسد رسالته الأبدية التي نتحاور معها منذ أن سمعنا الإنجيل، أي البشارة، **وهي بشارة اللحم والدم، ولم تكن هذه البشارة بشارةً بالكلام أو بالخطاب فقط**. كان الكلام أو الخطاب متجسداً في شخص، ولم يتجسد في نظام، ولا في منظومة عقائدية. هذه قد تكون إحدى طرق الدفاع العقلي عن تجسد ابن الله، وهي مطلوبة في مواجهة التحدي العقلي الوافد مع الثقافة، والذي تدفعه العادات الاجتماعية والمُثُل التي نتمسك بها، غير أن هذا الدفاع رغم أهميته، إلا أنه يفشل عادةً في استعلان عزة وكرامة الإنسان الذي لأجله جاء الابن وتجسد؛ لأن الدفاع يكون عندئذٍ عن التجسد، وفي غمرة وسخونة الدفاع، ننسى أن التجسد يهدف إلى الإنسان نفسه.

عندما يهل علينا عيد الميلاد، أو بالحري عيد تجسد الرب في كل عام، وأسمع تراتيل شجية بموسيقى عالمية جميلة، لا أجد نفسي أسيرُ حدثِ بيت لحم، وهو تجسد ابن الله، بل أجد نفسي أُقَلِّب في دفاتر التاريخ عن عظمة الإنسان التي أشرقت في إنجيل بشارة يسوع المسيح. لقد جاء السمائي إلى الأرض، وحَلَّ الله (كل "ملء اللاهوت") في الطبيعة الإنسانية التي أخذها الرب من البتول والدة الإله (كولوسي ١: ١٩)، لكي يشرق الإنسان بجمال الأبدية وعظمة وقوة المحبة الإلهية.

في رائعة بولس الملهَم بالروح هناك لحنٌ سماوي في (فيلبي ٢: ٦-٨) عن إخلاء الذات، وهو لحنٌ حَفِظَ "الهارموني" اللاهوتي، إذ حَفِظَ لنا محبة الأقنوم للبشرية؛ لأن إخلاء الذات هو أن يقبل الرب أن يكون حياً في حياةٍ هي عكس حياته الشخصية. كان لابد له أن يخلي ذاته من القوة والمجد، وأن يحاصِر القوة والمجد في الإنسانية التي صارت ليست إقامته المؤقتة، بل الأبدية في أقنومه الإلهي - المتجسد إلى الأبد.

تغييرٌ كبيرٌ جداً له تبعاتٌ أبديةٌ تحاصِر وتهدم كل ما نعرفه عن الله وعن الإنسان.

غير أني سوف أترك ما عرفناه عن الله لكي أعود إلى "مشنقة الأصولية" التي تحاصر الإنسان وتشنقه، تبغي قتله، أو "محاصرته" أولاً بالشريعة، ثانياً بإغراق الإنسان في مستنقع الخطية لكي تصبح الخطية هي الشارح والمفسر لكل شيء.

كنت أتحدث مع طبيبٍ للأمراض النفسية يعمل في كندا عن التفسير النفسي لظاهرة الحديث عن أخطاء الأب متى المسكين التي نراها تبرز من آن لآخر على شبكة المعلومات. وضحك الطبيب وقال: هذا جانبٌ من جوانب سيادة الخطية، واعتبار "الخطيتولوجي" (علم الخطية)، هو علم اللاهوت الذي حلَّ محل الملكوت وبشارة الإنجيل والتبني والقيامة والحياة الأبدية، وقبل الكل، محبة الثالوث للإنسان؛ لأن هذه المحبة هي عزة وكرامة الإنسان في المسيحية. وطلبت الأذن أن استعمل هنا المصطلح الجديد "الخطيتولوجي" (علم الخطية)؛ لأن محورية الخطية دفعت بنا إلى هاوية الشعور بالذنب، وإلى محاصرة نعمة الله التي يجب أن تعطى لنا مجاناً، فأصبحت تعطي حسب قواعد واستحقاقات جعلت من النعمة أجرةً وليس هبة مجانية. وقال صديقي: إن الذي ضاع هو الإنسان. وقلت له: إن الذي ضاع هو غياب المتجسد من الخطاب المعاصر، رغم انتشار كتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس، وكتاب "تجسد الابن الوحيد" للقديس كيرلس. وأن ما نُشر تحت اسم الخرستولوجي، فهو دراساتٌ جيدة ومطلوبة،

وهي جديرة بكل تقدير واهتمام، ولكن الإنسان ذلك الكائن الـــذي تجســـد الـــرب لأجله، أين هو الإنسان؟ وأين استعلان الإنسان في يسوع المسيح؟

غاب التجسد، فغاب الإنسان:

شاهدت على YouTube مؤتمر العقيدة الأخير المنعقد في ١٨ يونيو ٢٠١٦، وكان معي مجموعة من شباب قالوا جميعاً: إن مَن يسمع هذا الشرح، لابُد وأن يقارنه بما يجده في الإلحاد من حريةً وكرامةً لفكر الإنسان. ذلك لأن لاهوت العصر الوسيط كان هو الذي سيطر على المتكلمين، **فلم يفارق المؤتمر كله، ما عدا أسقف واحـــد** كانت فيه نسمة حياة، بينما حاول الباقين اثبات صحة عقائد الكنيسة من نصـــوص العهد الجديد فقط، وهي نصوصٌ عليها شحنة اعتراضات إنجيلية دُوِّنَت منـــذ القـــرن السادس عشر، وتجدها في كتب نُشرت عندنا.

ما هي المشكلة الحقيقية؟

هي غياب أن استعلان تجسد الله الكلمة، إنما هو اســـتعلان لكـــي يقابـــل احتياجات الإنسان الأولى والأخيرة، وهي الحياة الأبدية الدائمة التي جاء بهـــا الابـــن، ووُهِبَت لنا بالروح القدس. هذه الحياة الجديدة هي في عبارة واحدة تعلـــن يســـوع كشخص: "جئتُ ليكون لكم حياة، وتكون هذه الحياة (أوفر) وأفضل". وهي ليست عبارة، ولا هي نص رغم مظهرها السطحي النصي، وإنما هي تشرح التجسد: "مـــن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمةً فوق نعمة".

هنا تبدو المشكلة: إن التصدي بالنصوص والمقارعة أو المبارزة بالأقوال، يخلق مشكلة تحوِّل الإنجيل إلى سلسلة من الأفكار والنظريات. إذا أخذنا المعمودية كمثـــال، مهما قيل عنها بالنصوص، سوف تجد من يقاومها بنصوصٍ أخـــرى، وهنـــا يكـــون الصياح والصراخ غيرُ مُجدٍ، ولكن يجب أن تكون أعيننا نحو:

*** رد الإنسان إلى المسيح.**

*** تحوُّل الكيان الآدمي الساقط بميلادٍ جديد، استُعلِن في يسوع المسيح عندما تجسد وصار هبةً من الله تُعطى في الماء والروح لميلاد جديد من فوق. هذا التحول الكياني هو الذي يحدد مسار الحوار: إما بقاء الإنسان كما هو في آدم، أو إعادة تجديد الإنسان وردُّه إلى حياةٍ جديدةٍ في المسيح.**

وإذا نظرنا إلى سر الشكر، لوجدنا أن حرباً تدور حول سر الشكر، تعود إلى القرن الحادي عشر في الغرب، ووَلَّدت هذه الحرب تعليم "الاستحالة الجوهرية". وعندما قلنا إنها "استحالة سرية"، خرج علينا من يقارعنا ويزيد بالاتهام بأننا ننكر تناول جسد حقيقي ودم حقيقي، وكأن الجسد والدم هو جسد ودم بيولوجي، ولكن عندما أضاف عبارة "تحت أعراض الخبز والخمر"، نزع عنه كل ما يوصف بأنه بيولوجي!! ولكن الجسد الحقيقي والدم الحقيقي هو جسد ودم من قال: "أنا الحياة"، "أنا هو الخبز الحي النازل من فوق"، "أنا هو خبز الله الواهب الحياة للعالم". فالحياةُ هي حياةُ من قال: "أنا الحق"؛ ولذلك فإن جسده "جسدٌ حقيقيٌ" لم تزيِّفُه الخطية، ولا أفسده الموت، ولذلك بقيَ جسداً حقيقياً حيًّاً غلب الفساد، وصار ممجَّداً بمجد الألوهة. ولأن الألوهة هي الحق، صار جسد الكلمة "حقاً". وتعبير "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) هو تعبيرٌ عن حق المجد الذي يمنحه يسوع "مجداً وإكراماً"، الخاص بالثالوث، وضاع علينا قوة الحس لا الحرف في الأصل القبطي ⲛⲧⲉ للثالوث القدوس. هو ذلك المجد المستعلن للإنسان لكي ينال حريته والانعتاق من الموت الذي يُستعلن ويُوهب في الذبيحة.

وعندما نقول إن التجسد غاب، فذلك لأننا جعلنا الصليب والصَّلب هدفاً، وحوَّلنا الصَّلب إلى فكرة، واقتبسنا أبشع ما جاد به الغرب من "زبالة"، وهي نظريات الفداء الخمسة، وتركنا أربعةً منها، وتمسَّكنا بواحدة، وهي دفع الثمن لله الآب، فغاب

اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن الفكر توقَّف عند الخطية، وهي ضد الله، وتوسَّع في شرح الخطية وجعلها "غير محدودة" (أي إلهية)، ولها آثار تمتد إلى الله نفسه لأنها تعد اعتداءٌ على الله، وهنا ضاع تجسد ابن الله، وغابت القيامة؛ لأن القيامة هي قيامة الجسد، وتحولت القيامة إلى "زفة أيقونة"، لا موكب انتصار الرب واستعلان الحياة الأبدية وهزيمة الجحيم والقبر.

والخلاصة هي أن التجسُّد والصَّلب والقيامة لهم محور واحد، وهو الإنسان.

- تجسَّد لأجلي لكي يوحِّدني به.

- صُلب لأجلي لكي يرفع الدينونة والموت ويلاشي كل ما فعلته الخطية.

- قام لأجلي لكي يكون لي شركة أبدية فيه وأُصبح غصناً في الكرمة (يوحنا ١٥: ١).

- وصعد إلى السماء لكي أجلس معه على عرش مجده (رؤ ٣: ٢١).

هذه هي الحياة الحقيقية، وهي لا تقوم على نصوص، بل على شخص الابن، وعمل الروح القدس.

كيف عصفت الأصولية بأساسات التدبير؟

أعادت الأصوليةُ المسيحيةَ إلى مربع الشريعة الموسوية. ترى ذلك بأوضح صورة في ذلك الحوار السخيف الذي دار ويدور عن طهارة المرأة وطهارة الجسد وقواعد وفتاوى الصوم، بل دخلت الشريعة حتى في مجال سر الشكر نفسه، فوَضَعَت قواعد للتناول، دون أن تشرح أيَّاً من هذه القواعد، تلك التي تراها معلقة على أبواب الهياكل.

* في حين أن السِّرُ هو حضورنا في وليمة الثالوث الإلهية – توزيع الرب لجسده ودمه علينا بواسطة الخدام – حلول الروح القدس علينا وعلى القرابين – حضورنا السمائي في السماء مع الملائكة.

ولماذا أحيط السر المجيد بقواعد وقوانين؟ لأن الأساس الحقيقي تم ردمه واستبعاده، وهو شخص المسيح، ولأن القواعد تسمح لمن نسب لنفسه ما يُسمى بالسلطان الكهنوتي لا خدمة الكهنوت، أن يصول ويجول في الكنيسة باسم القانون.

ولماذا عصفت الأصولية بالأساسات؟

والجوابُ واضحٌ لا يحتاج إلى مزيد شرحٍ. ذلك؛ لأن الكنيسة ليست هي جسد المسيح، وليس لها رأسٌ واحد هو يسوع، بل هي مؤسسة لها رؤوسٌ، هي جماعات الإكليروس. والمؤسسة تحتاج إلى قوانين وقواعد، وبالتالي صارت الكنيسة مثل المجتمع الذي تعيش فيه.

الأصولية تعصف بالمحبة:

من الكلمات الخالدة لأحد الآباء الذي ظلَّ يُطارَد طوال وجوده على الأرض، هو أن الكنيسة دخلت عصر "قساوة القلب". ورحل هذا الأب عن عالمنا لكي يُطارَد بعد نياحته. وقد تبدَّت هذه القساوة في الحُكم على الآخر، في حشدُ الأتباع ضد هذا أو ذاك، في استخدام الفضائيات وشبكة المعلومات في هجومٍ لا يبثُ الحقَ، بل الكذب؛ لأنه خارج التاريخ، ولأن التصور الشخصي صار هو مرجعية العقيدة بلا تاريخ، والأخطر الاتهام العام بلا دليل.

الكنيسة أُمُّ الشهداء كنيسة تاريخية:

في عام ١٩٦٨ وبالذات في يوم ١٨ مايو كانت محاضرة أستاذ كرسي التاريخ

في جامعة كامبريدج تدور عن تاريخية أو تاريخانية المسيحية، وقال إن المسيحية لها أصولٌ في شخص يسوع التاريخي الحي الذي عاش فعلاً على الأرض ومات وقام، وأنها أي المسيحية ليست رواية أو خرافة. وضرب مثلاً بكنيسة الإسكندرية العريقة وقال إنها لا تقدِّم الجديد إلا على أساس لاهوتي، وكل أساس لاهوتي له أساس في التاريخ، وأساس التاريخ هو المثال الحي يسوع المسيح. وعَرَضَ الكثير من النماذج بداءً من أوريجينوس الأب الأول لعلم اللاهوت، ثم أثناسيوس وكيرلس، وطبعاً توقف عند نهاية عصر التدوين باللغة اليونانية، ولكنه كان دقيقاً، إذ قال إن كل تراث الإسكندرية لا زال حياً في تاريخ الكنيسة المصرية المعاصرة.

ولكن في خلال ٤٠ سنة مضت، عصفت الأصولية بالتاريخ الكنسي:

أولاً: غاب تدريس التاريخ وأُغلق قسم التاريخ الكنسي في معهد الدراسات القبطية، وحتى بعد نياحة الأستاذ نبيه كامل لم يتم تعيين متخصص في تاريخ الكنيسة. ولهذا فإن مجلة مدرسة الاسكندرية، تُزعج الأصوليين وتنزع النوم من عيونهم، والسبب معروف، فهي تفتح باب دراسة ما في الكنيسة أُمُّ الشهداء من مصادر التاريخ، وهو ما يكشف عورة الأصولية.

وبدأت ترجمات الآباء تُحارَب بشكل مقزز. وتبدو سخافة المحاربين فيما يقولونه من إن في هذه الترجمات أخطاء، دون بحث خطأ واحد. بالطبع، لدينا مشكلة، وهي عدم وجود قاموس يوناني/عربي، ولكن الخلاف يجب أن يقوم على المحتوى والنصوص والمقارنة مع اللغات الأوروبية، لا بالشتائم.

أكاد أتصور ما حدث عندنا على النحو التالي:

لقد تربَّع الجهلُ على عرش المعرفة، فويلٌ لمن يعرف، والعزةُ لمن لا يعرف، فهو صديقٌ دائمٌ للجهل، ينادم السلطان الجالس على عرش الجهل. وهكذا جلس الجهل على عرشٍ سمَّاه الجاهلون "سلطان الكهنوت"، وصار العبدُ الذي لا يخضع له مارقاً

وهرطوقياً، فلا عرش لابن الله، أي المسيحي شريك المسيح والوارث مع المسيح ملكوت الآب "رو ٨: ١٦-١٧)!!!

لقد نام الجهل في فراش القساوة، وأنجب العداوة. ونامت العداوة في فراش الخوف، فأنجبت العبيد.

وإذا كانت الفلسفة اليونانية تقول عن الإنسان إنه كائن عاقل حر مريد، فماذا يقول الانجيل، بشارة الحياة؟

الإنجيل يقول: الانسان هو حيٌّ – محبٌ – خالدٌ – شريكٌ للثالوث – حريته هي حرية المحبة لا محبة الحرية. وهو محبوب الثالوث.

هو هيكل الله حيث يحل روح الرب فيه. وهو لذلك، فوق كل الشرائع كلها، عندما يكون الخطاب عن الإنسان وعن الله. أما في المجتمع، فهو يخضع لما في المجتمع من سلطان قائم من أجل خدمة الإنسانية لا من أجل انتاج العبيد.

د. جورج حبيب بباوي